هوامش

سوق شعبي يقصده التجار والباعة والمتسوقون لما فيه من تنوع وأسعار تناسب فقير الحال والميسور على حدّ سواء... إنه سوق الخان، الذي يقع في مدينة حاصبيا، جنوبي لبنان

بضائع متنوعة في السوق (العربي الجديد)

سوق الخان

مركز تجاري شعبي تاريخي في جنوب شرقي لبنان

حاصبيا (جنوب لبنان) ـ **عمر يحيى**

على بعد كيلومترات قليلة من المثلث الحدودي للبنان مع فلسطين المحتلة وسورية، يقع سوق الخان، في مدينة حاصبيا، في القضاء الذي يحمل الاسم نفسه، في محافظة النبطية، جنوبي لبنان. هناك تتوزع المنتجات والبضائع المعروضة على جانبي الطريق الذي يربط بين قرى حاصبيا ومنطقة العرقوب وقضاء مرجعيون، وفي أكشاك ليست غير أعمدة تعلوها أسقف من القرميد جرى بناؤها عام 2002، بالإضافة الى ترميم وتأهيل قسم من الخان.

لكنّ «سوق الثلاثاء» كما اعتادوا تسميته، كونه يقام كلّ ثلاثاء من الأسبوع، يعرفه معظم الناس لكنّهم لا يعرفون الخان الأثري، الذي يقع خلف السوق المحاذي لمجرى نهر الحاصباني، ولا حكايته أو أطلاله التي ما زالت شاهدة على تاريخ موغل في القدم «في حين أعادت بلدية حاصبيا بعضاً من الحياة إليه بعدما إعتمدت باحة الخان مكاناً لإقامة مهرجانها السياحي السنوي» بحسب المجاز في علم التاريخ، والمهتم بالتاريخ الأثري لمنطقة حاصبيا، أمين سعد خير. يشرح الفرق بين «الخان» و «السوق»، فالخان كلمة غير عربية وتعني نزلاً أو فندقاً وكان فيه أماكن للنوم وإسطبلات وعلف للحيوانات يقدمها حكام المنطقة الشهابيون مجاناً، وذلك تشجيعاً لمرور القوافل والتجار عبر هذه المنطقة. يضيف: «أما السوق فقد بات ملاصقاً للخان، وكانوا يأتون إليه من سورية وفلسطين المحتلة، ولا سيما من صفد والجليل الأعلى وهضبة الجولان ووادي التيم والبقاع ومختلف المناطق اللبنانية، وكان الناس يعرضون منتجاتهم فتكون الأسعار أقل من أماكن أخرى. وكان الأمراء آنذاك يعفون التجار والباعة من الضرائب لتشجيع الحركة الاقتصادية والتجارية، لذلك سمي سوقاً شعبياً». ويشير خير إلى أنّ «هذا الخان بناه الشهابيون أواسط القرن الرابع عشر الميلادي وذلك بعد سقوط منطقة حاصبيا بيدهم مع تغلبهم على الصليبيين في موقعة ظهر الأحمر، لكن هناك معلومات بحسب ما هو موجود في الخان حتى اليوم تدلّ على أنّ الخان قديم جدا، إذ إنّ الطريقة التي بني بها الخان رومانية وبيزنطية، وليست عربية أو إسلامية، والأرجح أنّ الشهابيين جددوا بناء هذا الخان كما هي الحال في السرايا الشهابية في قلب مدينة حاصبيا، فالقسم الأرضي من السرايا روماني، والقسم العلوي إسلامي لما فيه من قناطر». ويوضح خير أنّ «السوق كان يستمر لثلاثة أيام، لكن نتيجة اغتصاب الكيان الصهيوني لفلسطين المحتلة والجولان السوري المحتل وما كانت تتعرض له هذه المنطقة من اعتداءات وقصف إسرائيلي منذ عام 1969، وقطع التواصل بين أهالي هذه البلدان، ضعف هذا السوق، الذي تشرف عليه بلدية حاصبيا، وتقلص عمله إلى يوم واحد هو الثلاثاء، وأضيف إليه مؤخراً يوم الأحد».

الباعة والمتسوقون في سوق الخان، بالرغم من جائحة كورونا وتدابيرها مصرّون على المجيء إليه، فمنهم من يعرض ما لديه من منتجات زراعية محلية أو ملابس جديدة أو مستعملة أو أنواع من المأكولات، ولا سيما الفلافل ومشاوي اللحوم التي تجذب رائحتها كثيرين، كذلك الأماكن الطبيعية المحيطة بالسوق توحي كما لو أنّهم في نزهة. يقول هنري صادق، من زحلة في البقاع (شرق) الذي اعتاد المجيء إلى السوق منذ نشأته: «بحسب معرفتي، فإنّ سوق الخان هو منذ أيام الرومان، وكانت هناك منامة للخيل والتجار، وبات رمزاً يأتي إليه التجار والباعة والمتسوقون من كلّ المناطق اللبنانية» معتبراً أنّ «الاهتمام بالسوق هو من المواطنين فقط، فهو سوق الفقير، فيما لا دولة ترعاه وتدعمه». كذلك، يقول تاجر الماشية عبد الكريم أيوب، من البقاع الغربي: «منذ طفولتنا ونحن نأتي إلى هذا السوق، فيبيع الناس ويشترون كلّ شيء من ماشية وخضروات وفواكه وغيره». أما الجزار، علي إبراهيم، من بلدة الهبارية في منطقة العرقوب القريبة، فيقول إنّه منذ خمسين عاماً لم يتخلف يوماً عن هذا السوق ليقدّم ذبائحه من الغنم البلدي للمتسوقين، معبّراً عن فخره بـ«لحمة سوق الخان، فهي لا تتغير، ويأتي الناس لتناول المشاوي من صيدا والنبطية وغيرهما». ويقول بائع الملابس المستعملة، الشيخ غالب حسن شعلان، من حاصبيا: «سوق الخان نعرفه أباً عن جد. كان محطة رئيسية للناس يأتون إليه من سورية وفلسطين المحتلة وكلّ لبنان، وعمره مئات السنين ولا يوجد تفرقة فيه أو تمييز بين الوافدين إليه».

لسوق الخان حكايات وأقوال باتت مأثورة ومعروفة في المنطقة، منها أنّ هناك قرية اسمها أبو قمحة مطلة على السوق، وكيفما مشى المرء منها يصل إلى سوق الخان من دون حاجة إلى دليل، لذلك يقولون: «كلّ الطرق تؤدي الى سوق الخان».

باختصار

الخان بناه الشهابيون في أواسط القرن الرابع عشر بعد سقوط حاصبيا بيدهم مع تغلبهم على الصليبيين.

■■■

تُعرض في السوق منتجات زراعية محلية وملابس جديدة أو مستعملة وأنواع من المأكولات، ولا سيما الفلافل ومشاوي اللحوم.

■■■

هناك قرية اسمها أبو قمحة مطلة على السوق، وكيفما مشى المرء منها يصل إلى سوق الخان من دون حاجة إلى دليل، لذلك يقولون: «كلّ الطرق تؤدي الى سوق الخان».

وأخيراً

«البؤساء»... دائماً وأبداً

نجوى بركات

لا بدّ لمشاهد فيلم «البؤساء» (2020) الذي يستعير عنوان رواية فيكتور هوغو الشهيرة، وشكّل عرضه في الصالات الفرنسية حدثاً فنّياً واجتماعياً وسياسياً أثار نقاشات وتصريحات عديدة، أن يُرى إليه اليوم، بطريقة مختلفة، بعد وقوع الأحداث المأساوية أخيرا في فرنسا (ذبح أستاذ التاريخ بسبب عرضه في صفّه «الرسوم المسيئة إلى الإسلام» كما درجت تسميتها، ومقتلة نيس التي جرت داخل الكنيسة وأدّت إلى وفاة سيدتين ورجل على يد متطرف تونسي إسلامي)، فالفيلم الذي يروي قصةً بسيطة تصوّر الجولة اليومية الاعتيادية التي يقوم بها فريق شرطة محلية (كريس وستيفان وغوادا) في أحياء ضاحية فرنسية، هي مونتفرماي، يتكشّف عن وجود وضع حسّاس ومعقّد بطبقات، «قابل للاشتعال» في أية لحظة.

لقد نال هذا الفيلم ذو المنحى التسجيلي، لمخرجه الفرنسي من أصل أفريقي، لادج لي، عدة جوائز، فرنسية (النقاد في مهرجان كان، سيزار أفضل فيلم... إلخ)، وأوروبية (السينما الأوروبية 2019، غويا لأفضل فيلم أوروبي 2020، إلخ)، مع ترشيحه لأفضل المهرجانات العالمية (أوسكار، غولدن غلوب،... إلخ)، لجودته الفنية، وتقنيته العالية، وزوايا تصويره المختلفة، وحرفية ممثّليه وصدق أدائهم. إلا أن ما ميّزه حتمًا براعته في تصوير واقع الضواحي الفرنسية المعقّد، المركّب، الذي ينطبق على كل أحزمة البؤس في العالم، حيث تتضافر عواملُ إثنية ودينية واجتماعية لتحوّل تلك المناطق إلى غيتوهات من حجارةٍ وبؤسٍ وعطالة. في فرنسا، هي مجمّعات سكنية عملاقة، بعيدة عن المركز، قبيحة وباردة وخالية من كل ما يوحي بالترحاب وهناءة العيش، ملأى بأعدادٍ هائلةٍ من مراهقين يدورون على أنفسهم، تماما كما تدور أشبال صغيرة داخل أقفاص ضيقة مغلقة. لقد بُنيت تلك الضواحي لإبعاد المهاجرين والفرنسيين الفقراء إليها، فتمّ الإغلاق عليهم إنسانياً واجتماعياً ومادياً، في حين سُوّروا بالعنصرية والتمييز الطبقي والمهانة، واتُّهموا بالعنف والانحراف وميلٍ طبيعي إلى ارتكاب الجرائم والجنح.

يبدأ الفيلم بحدثٍ رمزي، هو فوز الفريق الفرنسي لكرة القدم في بطولة العالم عام 2018، وحالة الفوران الشعبي، الوجداني والعاطفي، التي خلّفها عندما تجمّع الفرنسيون من كل الأطياف، محتفلين في جادة الشانزليزيه، مع إحساسٍ مستجدّ بالأخوّة، ومن بينهم المراهق الأسود عيسى، بشعره الذهبي. ننتقل بعد ذلك إلى مخفر «مونتفرماي»، حيث ينضمّ الشرطي ستيفان، القادم حديثا، إلى الفريق المكوّن من كريس، اليميني المتنمّر، وغوادا، الأفريقي الفاسد، ليبدأ الثلاثة جولتهم اليومية في الأحياء، حيث سنتعرّف إلى «زعامات» الجماعات المختلفة المؤثّرة، من عرب وأفارقة.

يتدخل فريق الشرطة المحلية لوقف مشكلٍ وقع بين السكّان والغجر الذين يهدّدونهم بالأسوأ، وقد رأوا ولدا أفريقيا يسرق شبلا من السيرك الخاص بهم. يعد الشرطي كريس بإعادته، افتكاكا للمشكل. عيسى هو السارق، كما يظهر من صفحته الافتراضية، فتتم ملاحقته إلى أن يُقبض عليه. يقول عيسى إن الشبل هرب منه، وما هي إلا دقائق حتى يهاجم رفاقُه الشرطة، مسهّلين هروبه. يفرّ عيسى راكضا، فتتبعه الشرطة، وما أن يُقبض عليه من جديد، حتى يبدأ رفاقُه برشق الحجارة وما يقع تحت أيديهم. يتخبّط عيسى محاولاً الإفلات مجدّدا، فيطلق عليه غوادا من سلاح الردع ما ينفلش في وجهه ويرديه مغميّا عليه. يهرب الأولاد، لكن كريس الذي لاحظ وجود كاميرا مسيّرة طائرة قد صوّرت كل شيء، يقرّر عدم اصطحاب عيسى المدمّى إلى الطبيب، قبل محو هذا الدليل. بعد إيجاد شريحة التصوير، وإعادة الشبل إلى أصحابه، يفلت كريس عيسى أمام بيته، ويهدّده بعدم الكلام.

في اليوم التالي، يُساق فريقُ الشرطة إلى فخّ نصبه الأولاد لهم، ثم يحاصَرون في بنايةٍ من عدد هائل من مراهقين يهاجمونهم بشتى الوسائل. وفي المشهد الأخير، نرى عيسى والشرطي ستيفان متواجهين، الأول في أعلى الدرج والثاني في أسفله، عيسى متردّدا في رمي القنبلة اليدوية المشتعلة، وستيفان في إطلاق النار عليه من مسدسه.. وعلى الشاشة، نقرأ:

احفظوا هذا يا أصدقائي
لا توجد أعشابٌ سيئة
ولا أناس سيئون
هناك فقط حرّاث سيئون.
(فيكتور هوغو، البؤساء).

> فيلم شكّل عرضه في الصالات الفرنسية حدثاً فنّياً واجتماعياً وسياسياً أثار نقاشات وتصريحات عديدة

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**